إدوارد سعيد والنقد الثقافي المقارن نموذج من قراءته الطباقية:

قلب الظلام لجوزيف كونراد وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح.

د.مداني زيقم
سعيدة جلايلية
جامعة سوق أهراس

الملخَّص:

يعد "إدوارد سعيد" من الذين تنبهوا لقصور النقد الأدبي، و نادوا بضرورة وضع النصوص في سياقاتها الثقافية، فكان من أبرز منظري النقد الثقافي خاصة في كتابه "العالم والنص والناقد" مؤكدا على ضرورة وضع "النص" بين طرفي "العالم" (الدنيا) و"الناقد" ، الذي يتولى مهمة الكشف عن الأنساق الدنيوية المضمرة، السياسية والإيديولوجية والعرقية...

ولأن "إدوارد سعيد" يؤمن بأنه لا وجود لنص بمعزل عن نسقه الثقافي، فقد عكف على دراسة الثقافات دراسة أركولوجية، مركزا على الثقافة الغربية المهيمنة، تجسدت هذه الدراسة في كتابه "الاستشراق" الذي عمل فيه على تجلية العلاقة بين المعرفة والسلطة، لينتقل إلى فضاء أكثر شمولية وهو علاقة الثقافة (الإنشاء) بالإمبريالية في كتابه "الثقافة والإمبريالية".

موضع "سعيد" الأدب في سياقه التكويني الثقافي، وكشف عن انخراطه في عملية إمبريالية، وأحدث منظورا طباقيا في الدرس المقارن للروائع الأدبية الفنية التي أنتجت في ظل اللقاء بين الأنا و الآخر وتحت ظلال الإمبريالية. لقد استطاع "سعيد" أن يتجاوز الطروحات النقدية الكلاسيكية ويلم شمل عدة حقول معرفية متباينة، ويصهرها في بوتقة واحدة هي بوتقة النقد الثقافي المقارن .

RÉSUMÉ:

"Edward Said" was one among those who become aware of the inadequacy of literary criticism, and called for the need to develop scripts in cultural contexts. Hence, he was one of the most prominent theorists of cultural criticism, especially in his book, "The World, the Text, and the Critic", stressing the need to set "text" between the extremities of "the world" (life), and "critic" whose mission is to detect embedded life formats whether political, ideological, or ethnic…

As Edward Said believes that there is no script isolated from its cultural context, he has carried archeological studies to world cultures, focusing on dominating Western culture, which was portrayed in his book "Orientalism". In this book, he shed the light on the relationship between knowledge and power; then, he moved to a more inclusive space which is the relationship of culture (construction) and imperialism in his book "Culture and Imperialism"

Said positioned literature in its formative cultural context, and revealed its involvement in an imperialist process; besides, he genuinely made stratified perspective in the lecture of comparative literary of masterpieces of art that produced under the encounter between the ego and the other under the shadow of imperialism. Said was able to go beyond the theses of classical criticism, bring together several divergent fields of knowledge, and melt them in one crucible of Comparative Cultural Criticism.

المنارة للاستشارات
www.mar

توطئة:

غالبا ما ارتبطت مهمة النقد الأدبي بالكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي وترسخت فكرة سمو الأدب بفضل لغته الرمزية التي لا يمكن تقزيمها إلى موعظة أخلاقية، أو فكرة إيديولوجية، فأهملت الأنساق الثقافية التي انبجست منها هذه النصوص، وقد لاحظ بعض النقاد هذا البتر الذي أحدثه النقد الأدبي، منبهين إلى ضرورة وضع النصوص في سياقاتها الثقافية لإضاءة عتماتها، وللكشف عن هذه الأنساق التي تمرر في قالب إستيتيكي أدبي.

لقد كان هذا القصور سببا في ظهور النقد الثقافي الذي أصبح بديلا منهجيا عن النقد الأدبي، ومكملا له في الوقت ذاته، مستخدما منهجه وتقنياته للوصول إلى قراءات جديدة، وللكشف عن خبايا النصوص ودسائسها على اختلاف أشكالها السياسية منها والإيديولوجية والعرقية...ومن ثمة معرفة مدى تأثير هذه الأنساق الثقافية في تشكيل النصوص الأدبية.

يعتبر "إدوارد سعيد" من أبرز منظري النقد الثقافي، خاصة في كتابه "العالم والنص والناقد" لكنه لم يصطلح عليه بهذا المصطلح بل سماه نقدا دنيويا، وفي هذا الكتاب أكد على ضرورة وضع النص بين طرفي العالم (الدنيا) والناقد الذي يتولى مهمة الكشف عن الأنساق الدنيوية المضمرة.

ولأن "إدوارد سعيد" يؤمن بأنه لا وجود لنص بمعزل عن نسقه الثقافي، فقد عكف على دراسة الثقافات دراسة أركولوجية، مركزا على الثقافة الغربية التي بسطت سطوتها على مختلف الثقافات الأخرى. تجسدت هذه الدراسة في كتابه "الاستشراق" الذي عمل فيه على تجلية العلاقة بين المعرفة و السلطة، لينتقل إلى فضاء أكثر شمولية وهو علاقة الثقافة (الإنشاء) بالإمبريالية في كتابه "الثقافة و الإمبريالية"، إذ درس الأدب –وبالخصوص الرواية – في إطار ملابساته الثقافية، وكشف عن تورطه في نسج خيوط الإمبريالية الغربية، أو ما يسميه "إدوارد سعيد" "أبرطة العالم"، ولم يكتف بمقاربة هذه النصوص التي نشأت في ظل الإمبريالية وإنما قام بمقارنتها مع النصوص المقاومة لها في الثقافات المنتهكة، من خلال المفهوم الذي أبدعه، وهو "المنظور الطباقي" أو "القراءة الطباقية"، وهي مفهوم مركزي في منهج "إدوارد

المنارة للاستشارات
www.mar

سعيد"، يبحث في العلاقة بين المجتمعات والثقافات من جهة، ويصبو من جهة أخرى إلى قراءة إنشاء التاريخ الحواضري بالموازاة مع قراءة إنشاءات التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها

وإلى جانبها إنشاء التاريخ الحواضري المسيطر، وهذا المصطلح هو مصطلح متخصص في الموسيقى ا ستوحاه "إدوارد سعيد" ووظفه كمفهوم مركزي في منهجه التحليلي، يقول مفسِّرا هذا المفهوم «حين نعود بالنظر إلى سجل المحفوظات الإمبريالي نأخذ بقراءته من جديد لاواحديا، بل طباقيا بوعي متآين للتاريخ الحواضري الذي يتم سرده ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها (ومعها أيضا) الإنشاء المسيطر في النقطة الطباقية للموسيقى العريقة الغربية، تتبارى وتتصادم موضوعات متنوعة إحداها مع الأخرى، دون أن يكون لأي منها دور امتيازي إلا بصورة مشروطة مؤقتة، ومع ذلك يكون في التعدد النغمي الناتج تلاؤم ونظام »[1]

وسنسعى في السطور القادمة إلى تسليط الضوء على جهود "إدوارد سعيد" في النقد الثقافي المقارن، تحت مبحث عام وهو علاقة المعرفة و الإنشاء بالسلطة، حيث يهتم الجزء الأول باستجلاء العلاقة بين المعرفة الاستشرافية و القوى الاستعمارية الغربية، ويثبت الجزء الثاني أن السرديات الغربية، وخاصة الرواية ذلك النتاج الخيالي الخلاق هي أحد الدعائم الفكرية ضمن استراتيجية التوسع الغربي فيما وراء البحار ،كما يتضمن هذا الجزء مقاربة الخطابات السردية المهيمنة بالخطابات السردية المقاومة لها التي تنتهك حرمات الخطاب الحواضري، بواسطة منظوره الطباقي أو قراءته الطباقية، وقد اخترنا من دراساته رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد (Joseph Conrad) كمعلم شاهد على أن الإنشاء الغربي هو إرادة القوة، ورواية "موسم الهجرة إلى الشمال "للطيب صالح، كنموذج مقاوم بل كنموذج غاز ينتهك حرمات العالم الحواضري.

أولا : علاقة المعرفة، الإنشاء بالسلطة :

1- علاقة المعرفة بالسلطة :

«إن المعرفة تمنح القوة ومزيدا من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة»[2].

حاول "إدوارد سعيد" في كتابه "الاستشراق"، أن يبين العلاقة بين المعرفة والسلطة، فالاستشراق، «نهج من الإنشاء الكتابي، له ما يعززه من المؤسسات، والمفردات وتراث

المنارة للاستشارات
www.mar

البحث، والصور، والمعتقدات المذهبية، وحتى الأجهزة المكاتبية (البيروقراطية) الاستعمارية، والأساليب الاستعمارية» [3].

لقد أدرك "إدوارد سعيد" أن معرفة الآخر إرادة السلطة (الاستشراق)، فرغبة المعرفة هي إرادة سلطة، وليست رغبة في الموضوعية. لم يتساءل "سعيد" عن ماهية الاستشراق، ولم يجهد نفسه في البحث عن تعريفات خاصة له، ولا بلورة نظريات في شأنه، على غرار ما يفعله المفكرون، وإنما تساءل عن إرادة المعرفة، التي وجهت جهد المستشرقين، وكشف عن لغة أخرى هي لغة الإرادة، أو لغة السيطرة التي تختفي تحت اللغة العادية.

إن الدافع الظاهر لعملية الاستشراق هو الرغبة في معرفة الآخر بكل موضوعية، لكن النسق المضمر، وراء هذه المعرفة أخطر بكثير مما يبدو، فمنذ القدم شكل الشرق لغزا كبيرا بالنسبة للغرب، فعكف على معرفته، وكشف ألغازه، وبهذا لم تكن المعرفة الاستشراقية معرفة نزيهة، وإنما معرفة غرضها الإخضاع والسيطرة.

إن المعرفة الاستشراقية هي مجموعة من الآليات التي لجأ إليها الإنسان الغربي للسيطرة على خوفه من الإنسان الشرقي، فبعدما كان الشرق لغزا مخيفا، عملت المعرفة على جعل كل مجهول أو مخيف في الشرق، عاديا ومألوفا، لذا ينوه "إدوارد سعيد" إلى ضرورة النظر إلى الاستشراق كحالة تاريخية تابعة للاستعمار رغم ما قدمته من معرفة عن الشرق إلى الغرب.

اعتبر "إدوارد سعيد" سلفستر دي ساسي (Silvester de Sacy)، نموذجا بارزا يمثل هذا المفهوم، إذ اهتم بدراسة المادة الشرقية، درس اللغة العربية، والسريانية، والكلدانية، ثم العبرية. كان القسط الأكبر من جهده منصبا حول اللغة العربية، ويعتبر مؤلفه "المقتطفات العربية" بمجلداته الثلاثة، من أشهر أعماله. اختار فيه مجموعة من النصوص العربية، ليقدمها إلى طلابه من أجل أن يوفر عليهم —حسب زعمه—شراء أو قراءة مكتبة ضخمة حتى البشاعة من المادة الشرقية.

حاول "إدوارد سعيد" أن يكشف الحجب عن نوايا ونزعات دي ساسي العرقية، من وراء هذا العمل الاستشراقي، إذ لاحظ أنه اعتمد على طريقة انتقائية، نمطية، فلم يختر هذه المقتطفات لأهميتها، أو لتطورها التاريخي، أو لجماليتها الفنية، وإنما من أجل إثبات أفكار

المنارة للاستشارات
www.mar

عرقية، وطبيعة مشرقية، من رسم مخيلة وعقل الغرب، «ومع مرور الزمن، فإن القارئ ينسى جهد المستشرقين، ويأخذ باستنباء الشرق المتمثل في المقتطفات بوصفه الشرق كله »[4].

لقد أثقل "دي ساسي" الشرق بعقلانية المستشرق فبعدما كان ذلك المجهول الغريب المدهش، أصبح مألوفا عاديا، بل مجرد شعوب أصلانية كسولة خاملة.

أصبح "دي ساسي" مرجعا لكل من جاء بعده من المستشرقين، الذين واصلوا مسيرة الشرقنة واستنباء الشرق، ولم يتوان زميله أرسنت رينان (Ernest Renan) المستشرق الشهير –نموذج سعيد الثاني–الذي انصب اهتمامه على دراسة اللغات السامية فتوصل إلى أن هذه اللغات بدائية شنيعة التركيب، تدل على الأصل البدائي، والهمجي للساميين، في حين أن اللغات الهندو–أوروبية، لغات بلغت درجة الكمال، لأن الأوروبيين –بطبيعتهم–شعب بلغ درجة الكمال والتطور.

لم يقتصر جهد "إدوارد سعيد" الذي سخره لفضح المعرفة الاستشراقية على الباحثين في المادة الشرقية، بل وجهه أيضا نحو أكبر من دعا إلى تحقيق العدالة الإنسانية، ونسف الطبقية بين المجتمعات؛ إنه كارل ماركس (Karl Marx) الذي لم يتوان هو الآخر عن طعن الشرق وقذفه بأسطورة الأصلاني الكسول، ففي أثناء احتلال بريطانيا للهند عملت على إحداث ثورة اجتماعية مدفوعة بمصالحها الذاتية الاستنزافية، كتب ماركس العديد من المقالات يبرر فيها ضرورة هذه الثورة الاجتماعية المدمرة. لإعادة خلق نظام اقتصادي جديد، وذلك بتحمل العذاب الذي ينتج المتعة.

يرى "سعيد" أن ماركس بنى هذا التصور من خلال عمل المستشرقين، وخاصة "الديوان الغربي الشرقي" لغوته (Johann Goethe)، معتبرا الشرق أقل أهمية من حيث هو مادة إنسانية، بل نظر إليه نظرة قاصرة، وحكم عليه حكما اعتباطيا، في مقولته المشهورة، التي وشح بها "إدوارد سعيد" كتابه الاستشراق: «إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم، ينبغي أن يمثلوا»[5].

بسبب هذه الموجات الاستشراقية، لم يعد الشرق، ذلك الشرق الواقعي، وإنما أصبح فكرة، شكلها المستشرقون، وهذا ما عبر عنه "إدوارد سعيد" بشرقنة الشرق.

المنارة للاستشارات
www.mar

فضح "إدوارد سعيد" النوايا الدفينة للمستشرقين، وكشف «أن "المعرفة" بالشرق ليست مجرد مطابقة لكائن طبيعي، بل هي علاقة سلطة وسيطرة»[6].

لقد كان الاستشراق «في نهاية المطاف رؤية سياسية للواقع "رؤيا" روجت بنيتها للفرق بين المألوف " أوروبا، الغرب، ونحن". وبين الغريب " الشرق، المشرق، هم "»[7].

2- علاقة الإنشاء بالسلطة:

يقصد بالإنشاء في هذا العنصر، كل الكتابات التي كتبت حول الشرق واخترنا الرواية، كنموذج فعال أثقل بمفاهيم غربية.إن منهج "إدوارد سعيد" الأركولوجي، في الثقافة، مكنه من الكشف عن الخبايا والنوايا المضمرة وراء الثقافة الغربية.

آمن "سعيد" بأن المؤلفين لا يصنفون بإيديولوجياتهم أو طبقاتهم أو تاريخهم الاقتصادي، وإنما هم « كائنون إلى حد بعيد في تاريخهم، ومجتمعاتهم، يشكلون، ويتشكلون بذلك التاريخ، وبتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة[8]، فالثقافة والنصوص الفنية هي نحت للتجربة التاريخية.

كشف "سعيد" أن الرواية الغربية وتحت القناع الفني الجمالي، عملت على تكريس مفهوم الامبريالية والسيطرة على الشرق، فهي «مصنع ثقافي من مصنعات المجتمع الطبقوسطي»[9]. ويستدل على ذلك من أن فن الرواية هذا النبت الغربي، دشن برواية "روبنسن كروزو" لدنييل ديفو(Daniel Defoe)، التي أسست للأدب الكولينيالي، إذ يظهر بطلها شابا من الطبقة الوسطى ،رحالة مغامرا، زاده في هذه المغامرة هو كفاءته كممثل للعالم الحواضري، يسعى لتنوير ظلمات العالم(تعليم اللغة الإنجليزية، والمسيحية، ومنح الاسم"الكينونة"...) ، لكن هذا السخاء لم يكن دون مقابل، فقد أجبر الآخر أن يبدي طاعته وخضوعه ، بل وأن يسلم نفسه و أرضه للأنا المانحة، لقد منح كروزو "المقدرة بصورة صريحة عقائدية للتوسع فيما وراء البحار، "و هي عقائدية " مرتبطة مباشرة في الأسلوب و الشكل بسرديات الرحلات الاستكشافية (...) التي وضعت الأسس الإمبراطورية العظيمة"[10] .

المنارة للاستشارات
www.mar

أسفرت موضعة الفن في السياق التكويني الثقافي عن انخراطه في عملية امبريالية غربية، فقد درس "سعيد" روايات غربية كثيرة، في مرحلة الكولونيالية وما بعدها، فوجدها متورطة في الدعوة إلى السيطرة فـ« الرواية الواقعية الأوروبية، حققت واحدا من أهدافها الرئيسية، إذ دعمت بشكل لا يكون ملحوظا، إقرار المجتمع للتوسع فيما وراء البحر، فكانت الرواية من بين الدعائم الفكرية التي ساعدت الغرب على إنشاء امبراطورية»[11].

انخرطت الرواية الغربية في استراتيجية توسع سنها الغربي لنفسه على مدى قرون، من خلال العمل على تمرير أفكار استعمارية، أهمها: نزعة التفوق، التي تقر بأن الشعوب الأوروبية متقدمة بطبيعتها، أما الشعوب الأخرى متخلفة بطبعها، فالغرب هو الغرب المتقدم الأبدي، والشرق هو الشرق أبدي لن يبرح عن مواصفاته الدونية.

لم يكتف "إدوارد سعيد" بمقاربة هذه النصوص مقاربة ثقافية، وإنما قام بقراءتها، قراءة طباقية، مع نظيراتها المقاومة لها في العالم الشرقي، وهذا ما يدرجه في مضمار النقد المقارن. استوحى "سعيد" هذا المصطلح من ميدان الموسيقى، هوايته الأولى التي رافقته منذ صغره، واستغله في الدرس الأدبي المقارن، في ضوء التعارض بين القوة الاستعمارية الأوروبية، وقوة المجتمعات المستعمرة التي دفعها الضغط الاستعماري إلى خلق المقاومة ضده. يهتم مفهوم القراءة الطباقية بمقاربة الآداب التي نشأت في ظل الأنا والآخر،وتحت ظلال الإمبريالية.

ثانيا: نماذج تطبيقية بمنظور طباقي:

1- نموذج من الرواية في الثقافة المهيمِنة: "قلب الظلام" لـ: جوزيف كونراد.

تجري أحداث هذه الرواية، في غضون القرن التاسع عشر، كتبت ما بين سنتين 1898-1899، ولا يخفى على أحد ما تميزت به هذه الفترة، من تكالب الدول الغربية على السيطرة على العالم الشرقي.إن المنظور الطباقي الذي انتهجه "سعيد" –بخلاف المناهج النصانية– يشفع لنا أن نورد بعض تفاصيل حياة الروائي كونراد:

ولد جوزيف كونراد في بولندا، اضطرته ظروف قاسية أن يهجر موطنه ويتجه إلى بريطانيا ليستقر فيها، ويكتسب لغتها وثقافتها. في تلك الفترة كانت الكونغو أحد مستعمرات بريطانيا،

المنارة للاستشارات
www.mar

مما أغرى كونراد بقبول وظيفته في شركة بريطانية تستثمر العاج في الكونغو. عاد بعدها مريضا، فكانت " قلب الظلام " ثمرة هذه التجربة.

تحكي الرواية قصة البطل " كورتز " الذي قرر أن يترك خطيبته، ويتجه نحو الكونغو المستعمرة الإنجليزية، ليعود إليها فيما بعد مكللا بالنجاح، لحصوله على وظيفة في شركة العاج البريطانية في الكونغو.يقتدي به مالرو، ويلتحق به، ليعيشا تجارب مذهلة ويكتشفها حقائق مرعبة، جسدت الرواية آراءهم نحو هذه الحقائق.

بخلاف ما خطط له كورتز، يسقط في الفراش مريضا، وافته المنية، أما مالرو وعلى قارب في نهر التايمز يقفل عائدا إلى بريطانيا، وفي طريقه إلى هناك يروي إلى المستمعين تلك الحقائق المرعبة، والتجارب المذهلة التي عاشها رفقة كورتز، لكن أية حقائق التي يرويها مالرو لمستمعيه ؟ هذا ما حاول إدوارد كشفه من خلال مقاربة الرواية مقاربة ثقافية.

يفتتح كتابه " الثقافة والإمبريالية " الذي راهن فيه على فضح الأجندة الخفية، وراء قناع الثقافة، بمقطوعة من رواية " قلب الظلام ": « إن فتح الأرض، الذي غالبا ما يعني انتزاعها من أولئك الذين لهم بشرة مختلفة عن بشرتنا، وأنوف أكثر تسطيح بقليل عن أنوفنا، ليس عملا جميلا حين تتأمله بإمعان، وليس ثمة ما " يشفع له ويمنحه " الخلاص سوى الفكرة ذاتها، فكرة كامنة وراءه، لا ذريعة عاطفية بل فكرة، وإيمان لا تشوبه الأنانية بالفكرة التي هي شيء بوسعك أن تقيمه نصبا، وتنحني أمامه " مبجلا ". وتقدم له القرابين »[12].

إن هذه المقطوعة المركزة، التي وشح بها إدوارد كتابه، هي مفتاحه للدخول إلى عالم كونراد الروائي. فمن بين أهم الحقائق التي اكتشفها كورتز، حقيقة الاستعمار المرة، التي لخصها في اعترافه الجلي المركز في عبارة " يا للهول، يا للهول، أو الرعب الرعب " وتبناها مالرو، سارد الحكاية، الذي ينقل لمستمعيه هذه الحقيقة، لكن ليست حقيقة الاستعمار الواقعة، وإنما الحقيقة من منظوره هو، لأن الحقيقة الواقعة ضاعت في قلب الظلام مع موت كورتز.

كشف "سعيد" من خلال المقطوعة السردية التي وشح بها كتابه عن موقف مالرو /كونراد الإمبريالي والمناهض في الوقت نفسه للإمبريالية، إذ يقر بشاعة السطو على ممتلكات

المنارة للاستشارات
www.mar

شعب برئ، لا لشيء إلا لأنه شعب يختلف عن الشعب الغربي، ويبدوا إمبرياليا حينما يشرع في تبرير هذا السطو وتغليفه.

يرى "سعيد" أن الغرب اعترف بإن المبررات العرقية (الأنوف المسطحة، البشرة السوداء، ...) مبررات لا إنسانية، وغير عادلة، غير أن ما يسوغ هذه الأمبريالية اللاإنسانية هي الفكرة التي ابتدعها وشيدها الاستعمار، وصار لزاما عليه فيما بعد أن ينحني لها مقدما الضحية فداء، إنها فكرة التفوق الغربي، والمركز الفوقي، الذي يتبوؤه الرجل الأبيض، والذي يخول له ممارسة رسالته التحضيرية والتكفل بأولئك الأصلانيين الكسالى، إنه ذلك المشروع التنويري الذي حمله الغرب معه إلى أرجاء المعمورة، عماده المفاهيم الليبيرالية الغربية الطبقوسطية.

هذه الفكرة هي التي أغرت كورتيز، بأن يترك خطيبته، ويتجه إلى الكونغو لتحقيق آماله، مدفوعا بنزعة استعمارية –من أولوياتها امتلاك امبراطورية –آملا تحقيق النجاح، والعودة ظافرا، فيتحول إلى رجل بلا أخلاق، بلإلى رجل سفاح في سبيل العاج، ولكنه وقع فريسة في شباك الأدغال، وفي ذلك الجو الروحاني الذي أغراه حد التماهي مع طقوس بدائية مثل " أولئك " الأصلانيين في الكونغو، ليسقط صريعا على فراش الموت.

يذهب "سعيد" إلى أن "قلب الظلام" تكتظ«بالإشارات إلى الرسالة التحضيرية، إلى مخططات سخية خيرة، وأخرى قاسية فضة، لإحضار النور إلى الأمكنة والشعوب المظلمة،»[13]، لقد أراد كل من كورتيز ومالرو/كونراد،أن يبددا الظلام الإفريقي بالمشروع التنويري، الذي يرعاه العالم الحواضري بشتى الوسائل حتى اللاإنسانية منها، إذ ما دام هناك ظلام، فهو قابل للاستعمار والإضاءة.

ظل كونراد حسب "سعيد" متأرجحا بين طرفين نقيضين حميمين في الوقت ذاته؛ الاستيلاء على الأرض بالقوة ونشر الحضارة وتنوير العالم الظلامي، والرابط الذي يجعل هذين النقيضين يلتحمان بحميمية هو تقنيع استعمال القوة بقناع كفاءة الرجل الأوروبي التي تحميه وتشرعن له ممارسة السلطة بالقوة ضد الشعوب الأخرى.

يسفر "إدوارد سعيد" أثناء قراءته للرواية عن الغلاف الذي لف به العالم الحواضري بشاعة سطوته بالكشف أكثر عن موقف الأوروبي المجحف الذي يقدم الضحية فداء للفكرة

المنارة للاستشارات
www.mar

التي شيدها وعبدها ،ويشرع في عقلنة وشرعنة سلوكه، ففي إطار المشروع التنويري يتحدث "مالرو" عن فكرة الخلاص، حين قابل بين المستعمرين الرومان، والاستعمار الحديث، مبينا أن الرومان لم يكونوا «مستعمرين فقد كانت إدارتهم اعتصارا ولا شيء آخر»[14]، واقتصرت مهمتهم على الفتح وحسب، لم يؤمنوا بأية فكرة، غير فكرة الفتح، ولم يمتلكوا رسالة تسوغ لهم ذلك الفتح في حين أن بريطانيا، تدفعها فكرة الخلاص ، تخليصهم " هم " من شرور المستعمرات القديمة الشرهة المغتصبة دون أدنى وعي برسالة الرجل الأبيض. إن فكرة «الخلاص RE-DEMPTION وهو بمعنى ما خطوة تتجاوز الإنقاذ SALVATION (...)إن الخلاص ليوجد في الممارسة الذاتية التسويغ لفكرة ما أو لمهمة إرسالية ما على مدى الزمن، في بنية تطوقك تماما وتبجلها أنت تماما ، رغم أنك أنت الذي نصبت البنية»[15].

إن كفاءة المستعمر الحديث، –وتحت تأثير الفكرة – خولت له ممارسة رسالته (التحضيرية). «نحن مطوقون، ونطوق أنفسنا بممارسة الكفاءة، التي عن طريقها نضع الأرض والبشر موضع الاستخدام بشكل كلي، فالأرض وسكانها مشمولة مدمجة عليه بفضل حكمتنا، الذي يقوم بدوره بشملنا ودمجنا كلية، إذ تستجيب بكفاءة لمقتضياته»[16].

ضاعت الحقيقة في الأدغال مع موت كورتز الذي توصل إلى حقيقة الأوروبي الإمبريالية، والتي لخصها في عبارة "الرعب، الرعب"، إن مالرو كونراد احتكر السرد، فحجب بذلك الحقيقة وما كتمانه حقيقة كورتز عن خطيبته إلا دليلا على موت الحقيقة.

إضافة إلى مضمون الرواية الذي يحتشد بالإمبريالية، بين "سعيد" أن الإمبريالية متغلغلة حتى في شكلها السردي فهي" تنطق باسم الأفارقة كما باسم كورتز والمغامرين الآخرين، بمن فيهم مالرو وجمهوره"[17].

أبرز "إدوارد سعيد" من خلال قراءة الرواية موقف كونراد الضبابي، فرغم إدراكه أن ذلك الظلام الإفريقي بإمكانه استرجاع ما اغتصبته الإمبريالية منه، وتحقيق استقلاله الذاتي، لكن العامل الذي جعله يعيش هذا الموقف الضبابي المتأزم هو أنه مولود في بيئة إمبريالية، لا يستطيع التمرد على عصره، رغم إدراكه حق الإدراك أن الامبريالية في جوهرها سرقة واغتصاب لأراضي شعوب بريئة. إن رواية قلب الظلام ليست مجرد صياغة فنية لتجربة كونراد التي عاشها

المنارة للاستشارات
www.mar

في إفريقيا، بل هي إضافة إلى ذلك صدى لمخزون المأثورات الشعبية الإفريقانية[18] وحوصلة لمجموع الآراء المسيَّسة والمسيَّجة بعقيدة الرجل الأبيض.

إن هدف الغرب هو حكم ما وراء البحار، والسيطرة على أراضي استراتيجية في أقاليم نائية، هذا ما تشي به الروايات التي أزاح عنها "سعيد" ستار التنوير وبين أنها تفوح برائحة الإمبريالية «الاستيطان، والسيطرة على أرض لا يملكها المرء، أرض نائية يعيش عليها ويملكها آخرون»[19].

2- نموذج من الثقافة المقاومة : "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح

صحيح أنه ما أخذ بالقوة، لا يسترجع إلا بالقوة، لكن القوة لوحدها لا تكفي لتحقيق الاستقلال، ودرء كل التهم التي قذفت بها الشعوب المستضعفة. بعد مرحلة المقاومة الأولية، تأتي مرحلة أهم، هي مرحلة " المقاومة العقائدية "[20]، وربما تسبق هذه المرحلة مرحلة القوة، هذا ما فعلته الإمبراطوريات الكبرى، حينما عملت على شرقنة الشرق، وجعلته فكرة من صنعها، ثم سيطرت عليه.

أدركت الطبقة المثقفة في الأقاليم المنتهكة، مدى أهمية المقاومة العقائدية، وأخذت على عاتقها مهمة التصدي لتلك السرديات التي نشأت في ظل الثقافة الإمبريالية، وبذلت جهودا لمحاولة إعادة بناء ما هدمته الإمبراطوريات، وتقويض ما شيدته الخطابات الاستعمارية، فظهرت حركة قوية، تعمل على تفكيك الاستعمار، تنتهك خطاباتها حرمات الخطاب الحواضري، وترغم الآخر على الاستماع إلى أصواتها.

لقد واجه الغرب مقاومات بالغة الأثر من أصوات، كرست جهودها لاسترجاع كيانها، كأمم لها الحق في العيش بحرية، والتمتع بحقوقها الإنسانية، فكانت هناك حركة مضادة، سماها "إدوارد سعيد" " الرحلة إلى الداخل" voyagin[21]، وقد أورد في كتابة الثقافة والإمبريالية نماذج عديدة، وقرأها قراءة طبقاتية، نختار منها نموذجا عربيا مناضلا؛ وهو رائعة الطيب صالح " موسم الهجرة إلى الشمال ".

المنارة للاستشارات
www.mar

يذهب "إدوارد سعيد" إلى أن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" عكست اتجاه رواية "قلب الظلام"، فغدت رحلة إلى قلب أوروبا، سلكها مصطفى سعيد، بعدما كانت رحلة إلى قلب الظلام الإفريقي، في أعماق الأدغال، إنها «رحلة الرجل الأسود شمالا، إلى أقاليم البيض»[22]. ينطق فيها الأصلاني الصامت بعد صمته الطويل، ويخلخل موازين المعادلة؛ الشرق/ المغلوب، و الغرب/ الغالب بدءا بالشكل السردي الذي بدد المركزية الأوروبية ، فقد تولى السرد في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال "سارد شرقي/جنوبي، بعدما احتكره في "قلب الظلام" الرجل الأبيض الذي يرمز بفرديته إلى انتصابه مركزا للكون، «ويصبح نهر كونراد النيل، الذي تجدد مياهه نفوس أهله وحيويتهم، وبمعنى ما يعكس أسلوب كونراد السردي البريطاني القائم على المتكلم المفرد، ويعكس أبطاله الأوروبيون، أولا عن طريق استخدام اللغة العربية، وثانيا في كون رواية صالح تدور حول رحلة إلى الشمال لسوداني يذهب إلى أوروبا، وثالثا لأن الراوي يتحدث من قرية سودانية. هكذا تُقلب رحلة إلى قلب الظلام، إلى هجرة مقدسة من الريف السوداني الذي ما يزال يرزح تحت أعباء موروثه الاستعماري إلى قلب أوروبا»[23].

يحل الموسم، ويحن مصطفى سعيد إلى الهجرة شمالا إلى مركز الكون يعلن «أنا جنوب يحن إلى الشمال»[24]، من جنوب هجرته الحضارة إلى شمال هو موطن الحضارة، لكن جروحه القديمة التي لم تلتئم ،وطعناته المترسبة في ذاكرته، جعلته شخصية متأزمة مفصومة؛ يرغب في الهجرة شمالا، لكن أي شمال ؟ أليس ذلك الشمال الذي ما إن فتح عينيه حتى وجد قواته تجتاح حاضرته، ذلك الشمال الذي نصب نفسه صاحب الأرض، وأهان أهلها؟! كل هذا لم يبرح ذاكرة مصطفى سعيد، –الذي وصفه "إدوارد سعيد" بالصورة المرآوية لكورتز الإمبريالي–" فيطلق(...) عنان عنف طقوسي ضد نفسه وضد النساء الأوروبيات"[25] عازما على اقتحام العالم الحواضري، والثأر للمواطن الشرقي/ الجنوبي، فيعلن متحديا: « إني جئتكم غازيا »[26]، يعلن التحدي ضد الآخر الذي ألبسه تهمة الخصاء الفكري[27]، حينما جعله مجرد أصلاني كسول، بدائي، بائد لا يرتقي إلى مواصفات البشرية. فيقع في علاقة تحدٍّ مع الغرب ويكون الهجوم خير وسيلة للدفاع، ولا يكتف بنفي تهمة الخصاء الفكري، بل لابد

المنارة للاستشارات
www.mar

أن يقذف بها صاحبها، فيتحول إلى فارس عربي سلاحه سيف ذكورته، ليثبت له أنه بالرغم من تفوقه الثقافي، إلا أنه يبقى يمثل الطرف المؤنث[28].، ويشن حربا جنسية في عقر دار الإمبراطوريات، ليقيم علاقة تماه بين الغرب والأنثى، ويشرع في نصب شباكه لحرائر أوروبا، خاصة المثقفات منهن لإقناع «نفسه بصحة علامة المساواة التي عقد العزم على إقامتها بين الذكورة والأنوثة والثقافة»[29].

كانت شيلا غرينود أول فريسة، حاولت أن تزيل الفوارق العرقية والطبقية بين الناس، مدفوعة بطيبتها الإنسانية، ومبادئها الغابية، «كانت تلحس وجهي بلسانها، وتقول لي، لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الاستوائية. كنت لا أشبع منها، ولا تشبع مني، تتأملني في كل مرة كأنها تكشف شيئا جديدا تقول لي: ما أروع لونك الأسود، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة»[30].

ظنت أنه بهذا الارتباط الجسدي، تلتئم جروح الماضي، وتتمازج الحضارات، لكن عنف التاريخ[31]، والأحقاد الراسخة، حالت دون تحقيق حلمها، فانتحرت بالغاز، لما علمت أنها كانت توهم نفسها، وأن مصطفى سعيد كان يكذب من أجل إيقاعها في شباكه.

هكذا كان مصير آن همتد، فريسة اختارها من جمهوره، حينما كان يحاضر عن تصوف أبي نواس في شعره الخمرة. أعجبت به، رأت فيه ذلك الكيان الشرقي الغريب الأسطوري الفاتن في حكايات ألف ليلة وليلة"، يقول البطل على لسانها: «تقول لي إنها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة، وتسمع صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات، وأقول لها، إني أرى في زرقة عينها بحور الشمال البعيدة، التي ليس لها ساحل»[32].

كانت مرهقة من حضارتها المادية، وتود الالتحام بالشرق، لكن أي شرق إنه ذلك الشرق المزيف الكائن في شخصية مصطفى سعيد المؤسطرة، وتصحوا آن من أوهامها لتنتحر هي الأخرى كما فعلت شيلا.

حتى النساء المتزوجات لم يسلمن من شراك مصطفى سعيد، إيزابيلا سيموز سيدة متزوجة من وزير الكنائس فريسة اصطادها في ركن الخطباء في حديقة هايد بارك، وكعادته كان الكذب هو طعم الشراك، أوهمها بأن الوحوش افترست أباه، وأحاط نفسه بهالة شرقية

المنارة للاستشارات
www.mar

أسطورية، فأعجبت بشرقيته حد الافتنان، كان في نظرها غولا إفريقيا « اغتلني أيها الغول الإفريقي، وأحرقني في نار معبدك أيها الإله الأسود، ودعني أتلو في طقوس صلواتك الغريبة المهيجة ...» [33].تكتشف إيزابيلا هي الأخرى وهمها، « وتتحطم الأسطورة شظايا، فما ثمة إلا غيظ مستشيط في رأس سعيد وفي ...وتنتحر إيزابيلا كما انتحرت شيلا وآن من قبل »[34].

خرج مصطفى سعيد منتصرا من كل واقعة خاضها، منذ وصل إلى قلب أوروبا، لكن هذه المرة، كانت فريسته عصية متمنعة، ،إنها جين مورس ملحمته التراجيدية، أرغمته على مطاردتها ثلاثة أعوام، كان يحبها، وكانت تحبه، لكن النعرة العرقية، نعرة التفوق الأوروبي، ونعرة الثأر لعرقه المهان، هزا العلاقة بينهما، طلبت منه أن يتزوجها، لكنها حتى بعد الزواج، امتنعت عنه، وفي لحظة حاسمة خلعت جين كل أحقادها، وسلمت نفسها لمصطفى سعيد، ضغط على المدية، وقتلها طعنا في صدرها.« لقد عظم سعيد في عين جين لأنه، وهو يقتلها قد استطاع أن يرتفع عن ذلته التاريخية، كمستعمر إلى مستوى الكرامة الذاتية، والعزة الحضارية، وكبرت هي في عينه –لأنها إذ قبلت منه الموت بذلك السخاء– قد ارتفعت عن كبريائها العرقية إلى درجة المرأة العاشقة، والإنسانية الصافية»[35].

يؤكد "إدوارد سعيد" أن رواية موسم الهجرة إلى الشمال" رواية ثأرية غازية، هاجسها الأول هو الانتقام لكرامة الشرق المغتصبة، على طريقة الرجل الأسود، فلم ينس مصطفى سعيد يوم جاء كورتيز من عالمه الحواضري، مشبعا بنزعاته العرقية الفوقية، وأعلنها رسالة تحضيرية في قلب ظلام المشرق، رغم أنه كان يدرك حقيقة هذه الرسالة الاستغلالية، إلا أن نسبه العرقي كان حائلا بينه وبين الحقيقة، هكذا كان مصطفى سعيد الذي عكس الرحلة إلى قلب أوروبا، ورغم رغبته في تصالح الجنوب والشمال، إلا أن عقده التاريخية، كانت سببا في انتحاره، أو انتحار رغبة التصالح، وجعلت من طريق المثاقفة طريقا مسدودا.

استطاع "إدوارد سعيد" أن يزيح غلاف الإنسانية المزعوم من على الثقافة الغربية، وبتجاوز الطروحات النقدية الكلاسيكية والإلمام بشمل عدة حقول معرفية متباينة، وصهرها في بوتقة واحدة هي بوتقة النقد الثقافي المقارن، لينفرد عن بقية أعلام النقد الثقافي ويتميز عنهم.

المنارة للاستشارات
www.mar

الهوامـــش

1) إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية. ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص 20.

2) إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط6، 2003، ص 28.

3) المرجع نفسه، ص 37.

4) المرجع نفسه، ص 150.

5) المرجع نفسه، ص 35.

6) فتحي المسكيني: الهوية خارج المكان، أو النزعة الإنسانية في فكر إدوارد سعيد، المجلة العربية للثقافة، عدد 45، مطبعة المنظمة العربية للترجمة والثقافة وللعلوم، تونس، 2004، ص 268.

7) إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء، ص 74.

8)إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص66.

9) المرجع نفسه، ص 199.

10) المرجع نفسه، ص138.

11) المرجع نفسه، ص 84.

12)المرجع نفسه، ص 55 . أُخذت كل المقطوعات السردية الخاصة برواية "قلب الظلام" عن النسخة الإنجليزية من كتاب الثقافة والإمبريالية المترجم إلى العربية، نظرا لاختلافا لمقطوعات السردية في النسخة المترجمة للعربية عن المقطوعات السردية في الثقافة والإمبريالية.

13) إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، ص 137.

14) المرجع نفسه، ص 137.

15) المرجع نفسه، ص 137–138.

16) المرجع نفسه، ص 137.

17)المرجع نفسه، 95.

18) المرجع نفسه، 136.

19)المرجع نفسه، ص 78.

20) المرجع نفسه، ص 267.

المنارة للاستشارات
www.mar

21) المرجع نفسه، ص 274.

22) المرجع نفسه، ص 100.

23) المرجع نفسه، ص269.

24)الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، تقديم توفيق بكار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر) ودار الجنوب (تونس) 1979

25) إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص 169

26) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، ص

27) جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وأنوثة: دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط4، 1997، ص 11.

28) المرجع نفسه، ص 15.

29) المرجع نفسه، ص 15.

30) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال،

31)الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، مقدمة توفيق بكار: الثابت والمتحول، ، ص17.

32) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، ص

33) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، ص

34)الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، مقدمة توفيق بكار: الثابت والمتحول ، ص18.

35) المرجع نفسه، ص21.

المنارة للاستشارات
www.mar